معالم القرآن والسنة
مجلة محكمة
السنة الخامسة، العدد السادس، ٢٠١٠

محمد بن حاج إبراهيم

بَلاغَةُ التَّقْديمِ وَالتَّأْخيرِ في سُورَةِ الكَهْفِ
دراسة بلاغية تحليلية وتطبيقية
على منهج الإمام عبد القاهر الجرجاني

Abstract

This study deals with the topic of structure of sentence known as "*nazm*" in Arabic syntax. In particular, the concept of *taqdim* and *ta'khir* is studied based on the verses in *surah* al-Kahf and discussions by al-Jurjani. It is suggested here the important role of syntax not only in identifying different levels of meaning of the verses, but also in demonstrating the merits of speech and variations of eloquence. In this regard, the concept of *taqdim* and *ta'khir* represents the crux of rhetorical science of the internal and external meaning of a sentence as embodied in *'ilm al-Ma'ani*. In conclusion, this concept plays an important role in addressing the merits and traits of rhetorical issues.

مقدمـــــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين، نبينا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد.

اشتعلت نار الجدل في القرون الهجرية الأولى بين أئمة الأدب وأرباب المقالات من علماء الكلام في معرفة وتبيان حقيقة وجه الإعجاز الذي جاء به القرآن، والذي تحدّى العالمين بأن يأتوا بحديث مثله. فاختلفوا في هذا طرائق قِددا، وكَثُرَتْ آراؤهم عددا، فتعدّدتْ نزعاتهم، وتضاربت مذاهبهم.

وكان من أهم القضايا التي أشعلت هذه النار هي مفهوم الصرفة [١]. فالقائلون بالصرفة — هذا المفهوم الفلسفي الخطير— ينكرون وجود أعجوبةٍ في القرآن، "فالآية والأعجوبة في القرآن — عندهم — ما كان فيه من الإخبار عن الغيوب. فأمّا التأليف والنّظم فقد كان يجوز أنْ يقْدِرَ عليه العباد، لولا أنّ الله منعهم بِمَنْعٍ وعَجْزٍ أحْدثهما فيهم" واستطاع النظام المعتزلي (ت ٢٢٤م) بعبقريّته الفذّة، وحسن خطابه، أنْ يستقطب الكثير من العلماء، وأُلي الألباب إلى هذا الرأي. كما يُنْسَبُ إليه أيضاً قوله "إنّ نظْم القرآن وحُسْن تأليفه ليس بمعجزة النبي عليه الصلاة والسلام، ولا دلالة على صِدْقِه في دعواه النُّبوة، وإنّما وجه الدلالة منه على صِدْقِه ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأمّا نظْم القرآن وحُسْن تأليف آياته فإنّ العباد قادرون على مثله، وعلى ما هو أحسن منه في النّظْم والتأليف" [٣]. والشريف المرتضى الشيعي يقول "إنّ العرب قادرون على النّظْم والعبارات المماثلة لما جاء به القرآن الكريم، ولكن عَجْزَهم إنّما كان بسبب أنّهم لَمْ يُعْطوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن في معناه" [٤]. فكأنه يقول "إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لَمْ يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمانهم.." [٥]. لكنّ الإمام عبدالقاهر الجرجاني — وأمثاله — قاموا بصدِّ هؤلاء القائلين بالصرفة، ورأى أن القائل بهذا الرأي "معاند يعد

---

١ – فرية عظيمة جاهر بفكرتها إبراهيم بن سيّار النظّام المعتزلي (ت ٢٢٤هـ) وهي أنّ الله سبحانه وتعالى صرف العرب عن معارضة القرآن، مع أنّه كان باستطاعتهم فعل ذلك. لكن أوّل من أشعل نارها هو واصل بن عطاء المعتزلي (ت ١٣١هـ).

٢ – بركة، عبد الغني محمد سعيد، الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٩م، ط١، ص٥٣.

٣ – البغدادي، أبو منصور عبد القادر بن طاهر، الفرق بين الفرق، تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، القاهرة، ص١٤٣.

٤ – بركة، الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره، ص٥٤.

٥ – الرافعي، مصطفى صادق، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتبة مصر، مصر، ص١٧٤.

الرجوع عن الباطل قد اعتقد عجزاً، والثبات عليه ممن بعد لزوم الحجة جلداً، ومن وضع نفسه في هذه المنزلة كان قد باعدها من الإنسانية" [٦]. فكل ما أسردناه آنفاً عن مفهوم الصرفة نجدها جميعها تسلب القرآن إعجازه في نظمه وتأليفه.

وهذا المقال سيناقش قضية من قضايا الإعجاز القرآني، وهي قضية الإعجاز البياني في القرآن الكريم. فالذي بهر العرب وسلب نفوسهم، أسلوب القرآن ومعناه، فقد كان أسلوب نظمه خارجاً عن المعهود من نظام كلامهم، ومبايناً للمألوف من ترتيب خطابهم. وقد حاولوا أن يتحدّوه، فهم أهل الفصاحة والبيان، بل كانت سليقة فيهم. ومع هذا ما فلحوا، ونكسوا على رؤوسهم، وأقرّوا أنّه ليس من كلام البشر.

والقضية البلاغية التي نريد أن نناقشها في مقالنا هذا هي قضية التقديم والتأخير. هذه القضية التي أثارت نقاشاً بين النحاة والبلاغيين في أسرار التقديم والتأخير في العبارات والأساليب التي تطرحها هذه الظاهرة (كالمنطلق زيد و زيد المنطلق) و(جاء زيد ضاحكاً وجاء ضاحكاً زيد) وغيرها. وهاهي الآن تثـــير الباحث، خاصة عندما يجدها في سُمُوّ فصاحتها وبيانها بين آيات الذكر الحكيم. فهذه القضية ظاهرة لغوية تـــمتاز بها اللغة العربية عن كثير من اللغات، حتى إنّ الباحث عندما أراد شرح هذه القضية لطلابه الماليزيين، وذلك بإعطاء أمثلة باللغة الماليزية، لم يجدْ أفضل من الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم، حين ذاك اتضحت معالم قضية التقديم والتأخير. وعلى ضوء هذا، ستقوم مباحثنا على فهم قضية التقديم والتأخير البلاغية من خلال شرح وتفسير آيات من القرآن الكريم. فالقرآن الكريم قد تميّز بالدقة العجيبة في اختيار الكلمة من بين مترادفاتها، والإعجاز اللغوي في اختيار موضعها. فقد بلغ في هذا الفن ذروة السنام. استحقّتْ اللفظة أنْ تستقرّ في مكانها ولا تسمح لغيرها أنْ تزحزحها عنه. فالقرآن لَمْ يكتفِ في وضع

---

٦ – الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق : محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩١م، ص٣٣٢-٣٣٣.

اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه فحسْب، بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة. ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في كله. فقد تكون له خطوط عامة في التقديم والتأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك. كل ذلك مراعى فيه سياق الكلام والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة.

وقد اخترنا سورة الكهف لتكون قبلة هذه الدراسة، ويكون التركيز على سورة واحدة بدلاً من أن يكون على مجمل القرآن. فتضييق نطاق البحث يهدف إلى التركيز في الدراسة والتحليل.

أسأل الله العلي القدير أنْ يوفقني فيما ذهبت إليه، والله ولي التوفيق.

تمهيد :

من المسلّم به أنّ الكلام يتألّف من كلمات لا تُنْطَقُ دفعة واحدة، بل له ترتيب وضعي بحسب ترتيبه الطبيعي حتّى يتّضِح المعنى من سياق هذه الكلمات. فالمُسْنَد إليه رُتْبَتُه التقديم لأنّه المحكوم عليه، بينما المُسْند رُتْبَتُه التأخير لأنّه المحكوم به، أمّا ما عداهما فتوابع ومتعلقات تأتي بعدهما في الرُّتْبة. ومع ذلك فإنّه لابُدّ أنْ يأتي بترتيب وضعي طبيعي محدّد. "فمعنى الجملة ليس هو مجموع معاني المفردات التي تتألف منها، بل هو حصيلة تركيب هذه المفردات في نمط معيّن، حسب قواعد لغوية محددة تماما"[٧].

بيْدَ أنّ بعض الكلام يعتريه أغراض ومزايا تدعو إلى التقديم وإنْ كان حقّه التأخير، أو إلى التأخير وإنْ كان حقّه التقديم. "فهو بابٌ كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرُّف، بعيدُ الغاية. لايزال يفترُّ لك عن بديعة، ويُفضي بك إلى لطيفة. ولاتزال

---

٧ – الداية، فايز، علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م، ص٢١.

ترى شعراً يروقُك مسْمعه، ويَلْطُف لديك مَوْقِعُه، ثم تنظر فتجدُ سبب أنْ راقَك ولطُفَ عندك أنْ قُدِّم فيه شيء وحُوِّلَ اللفظ عن مكان إلى مكان" [٨].

على هذا، فتقديم جزء من الكلام أو تأخيره لا يَرِدُ اعتباطاً في نظم الكلام وتأليفه. وإنما يكون عملاً مقصوداً يقتضيه غرض بلاغي أو داعٍ من دواعيه. وقبل أنْ نذهب بعيداً تجاه معرفة هذه القضية لدى أصحاب البلاغة وأرباب الفصاحة يجدر بنا أن نعرف معنى هذه القضية من الجهة اللغوية والاصطلاحية، ومن ثمّ نتعرف إليها من خلال تعريفات أهل النقد والبلاغة.

التقديم والتأخير لغة واصطلاحاً

ذكر صاحب لسان العرب معنى التقديم، وأوضح أنّ هذه الكلمة في الوضع اللغوي من (قَدّم)، و"في أسماء الله تعالى المُقّدِّم وهو الذي يُقَدِّمُ الأشياء ويضعُها في مواضعها، فَمَنْ استحقّ التّقْديم قدّمه. والقديم على الإطلاق الله عزّ وجل". "وقَدّمَه إذا جعله قُدّماً، وفي التّنْزيل ﴿ لا يسْتأْخِرُوْنَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُوْن ﴾ [٩]، وفيه أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المُسْتَقْدِمِيْنَ مِنْكُمْ ولَقَدْ عَلِمْنَا المُسْتَأْخِرِيْنَ ﴾" [١٠]. [١١] "وقدّمَ الشيْء إلى غيره إذا قرّبه منه، ويقال: قدّمَ رِجْلَه إلى هذا الأمر إذا أقْبَل عليه" [١٢].

---

٨ – الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٩م، ص٩٦.

٩ – سورة الأعراف، الآية ٣٤.

١٠ – سورة الحجر، الآية ٢٤.

١١ – ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي تصحيح أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١٤١٩هـ، ٤٥٦/١٢.

١٢ – إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، مجمع اللغة العربية، مصر، د.ط، د.ت، ص ٧٢٠.

أمّا المعنى الاصطلاحي لمفهوم التقديم فهو مخالفة الرتبة التركيبية، ووضع اللفظة أو الكلمة في غير موضعها لداعية من الدواعي النحوية أو البلاغية. فنجد سيبويْه يشير إلى هذا المفهوم تحتح باب مايحتمل الشعر، حيث يقول : "ويَحْتَملون قُبْحَ الكلام حتى يضعوه في غير موضعه، لأنّه مستقيم ليس فيه نقيض، ومن ذلك قوله :

صددت فأطولت الصدود وقلما وصال على طول الصدود يدوم

وإنما الكلام : وقلّ ما يدوم وصال" [١٣]. والسيرافي (ت-٣٦٨هـ) يقول : "إنّ الشاعر قدْ يضْطَرُّ حتى يضع الكلام في غير موضعه الذي ينْبغي أنْ يُوضع فيه، فيزيله عن قصده الذي لا يحسن في الكلام غيره" [١٤]. ويرى ابن تيمية (ت-٧٢٨هـ) أنّ التقديم من خصائص لغة العرب، ولا ينْكره إلاّ مَنْ لا يعرف اللغة، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه، مضيفاً في قوله بعدم جواز مخالفة الأصل إلاّ مع قرينة [١٥].

أمّا التأخير، "والتأخير ضدّ التقديم، وهو مؤَخّرُ كل شيئ بالتشديد خلاف مُقَدّمُه، يقال: ضرب مُقَدّمَ رأسه ومُؤَخّرَه" [١٦]. أمّا اصطلاحاً، فهو تأخير ما هو في أصل وضعه اللغوي التّقديم، فيصبح مؤَخّراً لغرض من الأغراض اللغوية أو البلاغية.

وعلى إثْرِ هذا، نجد أنّ مفهوم التقديم والتأخير الذي اصْطُلِحَ عليه هو مخالفة الرتبة التركيبة الأصلية وخروجها عن وضعها الطبيعي في الجملة. وهذه المخالفة في وضع اللفظة لابُدّ أنْ تكون لداعٍ من الدواعي اللغوية أو البلاغية، وهذا الذي قصده ابن تيمية بالقرينة، كما قَصَدَه مِنْ قبله السيرافي في قوله "إنّ الشاعر قدْ يضْطَرُّ حتى يضع

---

١٣ - سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تعليق إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ج١، ص٣.

١٤ - السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، ما يحتمل الشعر من الضرورة، تعليق د. عوض حمد القوزي، ١٩٩٣م، د.ط.

١٥ - نقلاً عن الشجيري، هادي أحمد فرحان، الدراسات اللغوية والنحوية في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وأثرها في استنباط الأحكام الشرعية، دار البشائر الإسلامية، دمشق، ٢٠٠١م، ط١، ص٣٨٣.

١٦ - ابن منظور، لسان العرب، ١٢/٤.

الكلام في غير موضعه الذي ينْبغي أنْ يُوضع فيه، فيزيله عن قصده الذي لا يحسن في الكلام غيره" [١٧].

وهنا مأخذ لطيف يجدر بنا تبيانه حتى يتسنّى لنا فهم بلاغة التقديم والتأخير وهو أنّ ما يدعو بلاغياً إلى تقديم جزء من الكلام هو ذاته ما يدعو بلاغياً إلى تأخير الجزء الآخر. وإذا كان الأمر كذلك فإنّه لا يكون هناك مبررٌ لاختصاص كلٍّ من المسند إليه والمسند بدواعٍ خاصة عند تقديم أحدهما أو تأخيره عن الآخر، لأنّه إذا تقدّم أحد ركني الجملة تأخّر الآخر، فهما متلازمان.[١٨]

التقديم والتأخير عند عبد القاهر الجرجاني

إنّ قضية التقديم والتأخير أخذتْ مفهوماً بلاغياً ونحوياً. فأمّا المفهوم النحوي فنستنبط ممّا درسه ابن جنّي (ت-٣٩٢هـ)، ورأى أنّ ظاهرة التقديم والتأخير يكون على ضربين [١٩] :

١ - ما يقبله القياس.

٢ - ما يسهّله الاضطرار.

أمّا ما يقبله القياس فهو مخالفة الترتيب المُفترض من قبل النحاة، كتقديم المفعول على الفاعل كقولنا : (ضرب زيداً عمرُ)، وكتقديم المفعول على الفعل ما لم يعرض له ما يُقيّد رتيبه، كقولنا : (زيداً ضربه عمر)، وكتقديم خبر المبتدأ على المبتدأ،

---

١٧ - السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، ما يحتمل الشعر من الضرورة، تعليق د. عوض حمد القوزي، ١٩٩٣م، د.ط.

١٨ - عتيق، عبد العزيز، في البلاغة العربية علم المعاني والبيان والبديع، دار النهضة العربية، بيروت، ص١٣٢.

١٩ - ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ج٢، ص٣٨٢- ٣٨٧، بتصرف.

وخبر كان وأخواتها على أسمائها، فكل ذلك جائز بحسب مقتضيات الموقف وظروف التركيب.

وأمّا ما يسهله الاضطرار فهو ما لا يقبله القياس. ولم يجوّزه النحاة في الأسلوب النثري، "فلا يجوز تقديم الصلة على الموصول، ولا الصفة على الموصوف، ولا المُبْدَل على المُبْدَل منه، ولا عطف البيان على المعطوف، ولا العطف الذي هو نسق على المعطوف عليه ... ولا يجوز تقديم المضاف إليه على المضاف، ولا شيء مما اتصل به، ولا يجوز تقديم الجواز على المُجاب شرطاً كان أو قسماً أو غيرها" [٢٠].

وعليه، فإنّ صورة التقديم والتأخير عند النحاة هي مخالفة ترتيب مواضع الألفاظ في الجملة. وهذا يعني أنّه إذا كان التركيب لا يخالف الترتيب نحو (المنطلق زيد) نظراً لأنّ هذه الجملة تبقى مبتدأ وخبر، فهو ليس — إذن — صورة من التقديم والتأخير. أمّا جملة (في البيت رجل) فهي صورة من التقديم والتأخير لأنّ حكم مواضع ألفاظها وترتيبها تغيّر عمّا كان أصلاً لدى عرفهم.

أمّا التقديم والتأخير الذي يخالف القياس والقواعد التي وضعوها في اصطلاحهم، فهم لا يجوّزونه في الكلام النثري، ولكن في الشعر يمكن فعله. ذلك لأنّهم يرَوْن الشعر حالة طارئة لما فيه من أراجيز وقوافي تُلْزِمُ الشاعر الخَوْضَ في هذه الظاهرة، بشرط ألاّ يكون فيه تعقيد في المعاني أو لبس في تبيانها. لذلك أسْمُو هذا القسم من التقديم والتأخير بما يسهّله الاضطرار.

وثمة القول، هي أنّ النحاة أوضحوا أسس مفهوم التقديم والتأخير، والقواعد المفترض إتّباعها. لكنهم لم يذهبوا إلى أبعد من هذا، ذلك لأنّ دراستهم تقتضي جهوداً إلى هذا الحد. فمُهِمّتُهم البحث في لغة الكلام من حيث إعراب مفرداته وجمله، وتحديد ما يجب في تراكيب الجملة ممّا يجوز فيها مع تحديد أصول المعاني التي تدلّ عليها

---

٢٠ – المصدر السابق، ص٣٨٧.

صِيَغ الأسماء والأفعال ومشتقاتها، ومتعلّقات الفعل. أمّا من حيث معرفة دقائق الكلام ووجوهه فهذه لا تدخل في مباحثاتهم.

أمّا المفهوم البلاغي لقضية التقديم والتأخير فهي تُعْتَبَرُ من إحدى قضايا علم المعاني التي يرجع الفضل في إظهارها وتبيانها إلى الإمام عبد القاهرالذي يعتبر واضع أصول علم المعاني بكتابه (دلائل الإعجاز). فقد أبان المبهم والمستور، وأوضح الغامض والمضمور. فلم يحدث بعده تغيير يُذْكر في هذا العلم، لأنّه استطاع أن يستنبط من ملاحظات البلاغيين قبله كل القواعد البلاغية فيه. وفي قضية التقديم والتأخير خاصة، لَمْ يترك الإمام عبد القاهر غامضاً إلاّ وبيّنه، ولا مختلفاً إلاّ وعيّنه. فأوضح المقال، وأجاب عن السؤال.

وهذه القضية قد سَمَتْ تحت أضواء المفهوم البلاغي. فعبد القاهر قد أدرك أسرار التقديم والتأخير، وفهمها بشكل أوسع مما فهمه النحاة. فالتقديم والتأخير في نظر البلاغيين دلالةٌ على الامساك بالفصاحة والأخذ بسبلها، ذلك لأنّ معنى الجملة هو حصيلة تركيب معاني المفردات في نمط معيّن، حسب قواعد لغوية محددة. وتفسير هذا، أنّ معنى اللفظة بمفردها لا تعني شيئًا ما لَمْ تلحق بمعاني الألفاظ الأخرى في سياق معيّن. ومن ثمّ تتكوّن لدينا مجموعة من معاني تلك الألفاظ المفردة لتجتمع كلها في إطار معنى واحد يقصد منه المتكلم إفادة سامعه. "فالألفاظ المفردة التي من أوضاع اللغة، لَمْ توضع لتُعْرَف معانيها في أنفسها ولكن لأنْ يُضَمّ بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد. وهذا علم شريف وأصل عظيم، والدليل على ذلك أنّا إنْ زعمنا أنّ الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنما وضعت ليُعْرَف بها معانيها في أنفسها، لأدّى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالته، وهو أنْ يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعرفه بها، حتى كأنهم لو لَمْ يكونوا قالو : رجل وفرس ودار، لما كان يكون لنا علم بمعانيها. وحتى لو لَمْ يكونوا قالوا : (أفعل ويفعل) لَما كنّا نعرف الخبر في نفسه ومن

أصله، ولو لَمْ يكونوا قد قالوا (أفعل) لَما كنا نعرف الأمر من أصله ولا نجده في نفوسنا، وحتى لو لَمْ يكونوا قد وصفوا الحروف لكنا نجهل معانيها، فلا نعقل نفياً ولا نهياً ولا استفهاماً ولا استثناء. وكيف والمواضعة لا تكون ولا تتصور إلاّ على معلوم، فمحال أن يوضع اسم أو غير اسم لغير معلوم. ولأن المواضعة كالإشارة، فكما أنك إذا قلت : (خذ ذاك) لَمْ تكن هذه الإشارة لتعرف السامع المشار إليه في نفسه، ولكن ليعلم أنه المقصود من بين سائر الأشياء التي تراها وتبصرها. كذلك حكم اللفظ مع ما وضع له. ومن هذا الذي يشك أنا لَمْ نعرف الرجل والفرس والضرب والقتل إلاّ من أساميها؟ لو كان لذلك مساغٌ في العقل لكان ينبغي إذا قيل: زيد، أن تعرف المسمى بهذا الاسم من غير أن تكون قد شاهدته أو ذكر ذلك بصفة" [٢١]. "فلا محصول – للعلاقة بين الكلمات – غير أنْ تعمد إلى اسم وتجعله فاعلاً لفعل أو مفعولاً، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أو تُتْبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيداً له أو بدلاً منه، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالاً أو تميزاً أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفياً أو استفهاماً أو تَمنياً، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف – وعلى هذا القياس" [٢٢].

من هذه التوضيحات، يظهر لنا المعنى العام للتقديم والتأخير عند عبد القاهر. فنحن لا نأتي باللفظة ونضعها في السياق إلاّ بعد أنْ يطلبها المعنى. فلو قدّمناها على أختها، كنّا قد فعلنا هذا لأنّ المعنى طلبها في هذا الموضع. ولو أخّرْناها عن أختها، كان أيضاً بسبب المعنى الذي طلبها لهذا الموضع. إذن، فإنّ سرّ بلاغة التقديم والتأخير لا

---

٢١ – الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، ط٦، ١٩٦٠م، ص٣٤٠-٣٤١.

٢٢ – نفسه، ص٥١ – ٥٢.

يظهر في معنى اللفظة بذاتها، ولكنه يظهر في معنى الجملة كاملة حين تُقدّم هذه اللفظة عن أختها أو تُأخّر. وهنا يأتي الإمام عبد القاهر يفصّل القول فيها أكثر عندما يقسم التقديم والتأخير على شاكلتين.

أقسام التقديم والتأخير

أشرنا في السطور السابقة أنّ عبد القاهر يرى أنّ أسرار التقديم والتأخير لا يكون في اللفظ فحسب، بل في المعنى الذي جاء به في ذلك الموضع. وعلى هذا المبدأ يقسّم عبد القاهر تقديم الشيء على وجهين، تقديم على نية التأخير، وتقديم لا على نية التأخير :

١ – تقديم على نِيّة التأخير، "وذلك في كل شيء أقْرَرْته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدّمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدّمته على الفاعل كقولك : (منطلق زيد) و (ضرب عمراً زيدٌ)، معلوم أنّ (منطلق) و (عمراً) لم يخرجا بالتقديم عمّا كانا عليه، من كون هذا خبرَ مبتدأ ومرفوعاً بذلك، وكوْنِ ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله كما يكون إذا أخّرت" [٢٣].

وتفسير هذا، أنّ التقديم على هذه الشاكلة لا يغيّر حكم اللفظة مما كانت عليه في أصل موضعها. ففي (ضرب زيدٌ عمراً) نجد أنّ زيداً هو فاعل الضرب فأخذ علامة الرفع. بينما عمر كان هو المضروب، فهو المفعول به فأخذ علامة النصب. وهذا هو أصل الكلام أيْ: الفعل فالفاعل ثم المفعول به. لكنّنا عندما قدّمنا عمراً (المفعول به) على زيدٍ (الفاعل) – في قولنا: ضرب عمراً زيدٌ – لَمْ نقصد بهذا التقديم أنْ نغيّر الحكم الإعرابي في (عمر)، أيْ أنّنا لم نجعله فاعلاً لفعل الضرب. كما أنّنا لَمْ نجعل (زيدًا) مفعولاً به في فعل الضّرْبِ بتأخُره عن (عمر)، بل بقي هو الفاعل، و(عمر) المفعول به في

---

٢٣ – المصدر السابق، ص١٠٦.

فعل الضرب، فكلٌّ حمل جنسيّته النحوية وموقعه الإعرابي كما لو كان في أصل ترتيبهما الطبيعي. كذلك الحال في (مُنْطلِقٌ زيْدٌ)، نجد أنّ (منطلق) خبرٌ لِزيْد، سواء تقدّم عليه أو بقي في وضعه الطبيعي.

وتجدر بنا الإشارة هنا ونحن في هذا المقام أنّ هذا القسم من التقديم والتأخير يوجد بكثرة في كتاب الله العظيم، إلاّ أنّه ليس بالاستطاعة إعادة اللفظة المقدّمة، أو تقديم ما قد أخّرتْ إلى موضعها الطبيعي، كما هو حاصل في كلامنا. ففي المثال الآنف وجدنا أنّه بإمكاننا أنْ نقول (ضرب زيدٌ عمرًا) وبإمكاننا أيضًا أنْ نقول (ضرب عمرًا زيدٌ). أما القرآن الكريم فهو لا يأتي باللفظة إلاّ في موضعها الحقيقي — وليس الطبيعي فحسب — بل في مكانها الذي لا يمكن تبديله. فتعبّر فيه أحسن تعبير، وتصوّر المعنى أحسن تصوير.

ولنضْرب مثالاً لما نحن بصدده. فالواو في اللغة العربية لا تفيد الترتيب ولا التقديم ولا التأخير، بل تفيد مطلق الجمع عند جمهور العلماء، فيستوي تقديم أحد الجنسين وتأخيره، ولا تناقض في هذا مطلقاً. فإذا قلنا: جاء محمد وعلي، نجد أنّ هذه العبارة لا تفيد أكثر من الحكم بمجيئ (محمد وعلي)، سواء جاءا معاً أو جاء محمد أولاً وعلي ثانياً أو العكس. أمّا القرآن الكريم فللتقديم والتأخير فيه أسرار وإعجاز. ففي قوله تعالى ﴿ المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا ﴾[٢٤]. قدّم المال على البنون. والسبب في هذا — والله أعلم — أنّ معظم ما يتزَيّن به الإنسان في حياته مطلبه المال. فالملابس تحتاج إلى المال، والمنزل يحتاج إلى المال، وأثاث المنزل يحتاج إلى المال وكثير من لوازم الحياة يحتاج إلى المال. أمّا البنون فزينتهم أنّهم يملؤون حياتك عندما يكونون من حولك. لذا تقدّم المال على البنون لكثرة احتياجه زينة للحياة الدنيا مقارنة بالبنون.

---

٢٤ – سورة الكهف، الآية ٤٦.

ومثال آخر، وهو في تقديم البصر على السمع في قوله تعالى : ﴿ قُلْ اللهُ أعلمُ بما لَبِـثُوا، لَهُ غَيْبُ السّمواتِ والأرْضِ، أبْصِرْ بِهِ وأسْمِعْ، ما لَهَمْ مِنْ دونِهِ مِنْ ولي ولا يُشْرِكُ في حُكْمِهِ أحدا ﴾[٢٥]. فالمعلوم – والله أعلم – أنّ الأكثر في القرآن جاء بتقديم السّمْع على البصر، لأنّ السّمْع ينشأ في الإنسان قَبْلَ البصر في التكْوين. كما أنّ مدى السّمْع أقل من مدى البصر. فَمَنْ نسمعه يكون عادةً أقرب مِمّنْ نراه. لكن سرّ البلاغة في تقديم البصر على السّمْع في سورة الكهف يعود إلى أنّ الكلام كان عن أصحاب الكهف الذين فرّوا من قومهم لِئلاّ يراهم أحد، ولجأوا إلى ظُلْمَةِ الكهف لِكَيْ لا يراهم أحد، لكن الله تعالى يراهم في تقلّبهم في ظلمة الكهف. كما أنّهم طلبوا من صاحبهم أن يتلطّف حتى لا يراه القوم[٢٦]. فجاءت مسألة البصر هنا أهم من السّمْع، فاقتضى تقديم البصر على السّمْع في هذه الآية لأنّ الحديث كان مُنْصباً ومُرَكّزاً على حاسة البصر لا السّمْع. فسبحان الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عددا.

٢ – تقديم لا على نِيّة التأخير. وهو تقديم يغيّر حكم الكلمة، وإعرابها، ورتبتها حين يتغيّر موضعها. وتفسير هذا ما جاء عند عبد القاهر في قوله : ".. أنْ تنْقُل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعلَ له باباً غير بابه، وإعراباً غير إعرابه، وذلك أنْ تجيء إلى اسمين يُحْتمل كلٌ واحد منهما أنْ يكون مبتدأ ويكون الآخر خبراً له، فتُقَدّم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا. ومثاله ما تصنعه بزيد والمنطلق، حيث تقول مرة : (زيدٌ المنطلق)، وأخرى (المنطلق زيدٌ)، فأنت في هذا لَمْ تقدّم (المنطلق) على أنْ يكون متروكاً على حكمه الذي كان عليه مع التأخير، فيكون مبتدأ كما كان، بل على أنْ تنقله عن كوْنه خبراً إلى كوْنه مبتدأ، وكذلك لَمْ تؤخّر (زيداً) على أنْ يكون مبتدأ كما كان، بل على

---

٢٥ – سورة الكهف، الآية ٢٦.

٢٦ – مسلم، مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القاع، دمشق، ط٥، ٢٠٠٧م، انظر قصة الفتية ص١٩٩ بتصرُّف.

أنْ تُخْرِجه عن كونه مبتدأ إلى كوْنه خبراً. وأظهر من هذا قولنا : (ضربت زيداً) و (زيدٌ ضربته) لَمْ تُقدِّم (زيداً) على أنْ يكون مفعولاً منصوباً بالفعل كما كان، ولكن على أنْ ترفعه بالابتداء، وتُشغِل الفعل بضميره، وتجعله في موضع الخبر له" [٢٧]. فهذا الأسلوب من الكلام هو التقديم لا على نية التأخير.

هذا القسم من التقديم والتأخير يحمل في طيّاته معاني تختلف باختلاف مواضع اللفظة في السياق نفسه. والإمام عبد القاهر قد فطن إلى أسرار هذا القسم من التقديم والتأخير، وكشف المغزى منه. فهذه الصورة من التقديم، نجد فيها أنّ المعنى ليس سواء بين قولنا (المنطلقُ زيد) وبين (زيد المنطلق)، مع أنهما في الظاهر يتساوان من حيث الغرض وهو إثبات فعل الانطلاق من زيد. "وبيانه، أنّك إذا قلت : (زيد المنطلق)، فأنت في حديث انطلاقٍ قد كان، وعرف السامع كوْنَه، إلاّ أنّه لَمْ يعلم أمِنْ زيدٍ كان أمْ من عمرو؟، فإذا قُلْتَ : (زيد المنطلق)، أزَلْتَ عنه الشك وجعلته يقطع بأنّه كان من زيدٍ، بعد أنْ كان يرى ذلك على سبيل الجواز. وليس كذلك إذا قدّمْتَ (المنطلق) فقلت : (المنطلقُ زيد)، بل يكون المعنى حينئذ على أنّك رأيْتَ إنساناً ينطلق بالبعد منك، فلم تُثْبته، ولَمْ تعلم أزيدٌ هو أم عمرو، فقال لك صاحبك : (المنطلقُ زيدٌ) أي هذا الشخص الذي تراه من بُعْدٍ هو زيد" [٢٨].

ومثال آخر لهذا الصدد، نجده في قولنا : (الحبيب أنت، وأنت الحبيب). فالحبيب أنت يعنى أنّنا لَمْ نفصل — بقولنا هذا — بيننا وبين هذا الذي أشرنا إليه بمحبّتِنا له. أمّا (أنت الحبيب) فنحن بهذا قد أختصّينا هذا الذي أشرنا إليه بالمحبة من بين الناس، فجعلناه هو الحبيب.

ولتوضيحٍ أكثر، نأخذ قولنا (مرَرْتُ ماشياً بأخيك، ومرَرْتُ بأخيكَ ماشياً). فعندما قدّمْنا الحال (ماشياً) على (بأخيك) أردنا بهذا إفهام السامع أنّ المُتكلِّم هو الماشي

---

٢٧ – الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٦– ١٠٧.

٢٨ – نفسه، ص١٨٦.

عندما مرّ بأخيك، بينما تأخير (ماشياً) عن (بأخيك) - كما في الثانية — سيتوهّم السامع بأنّ الماشي هو أخوك وليس أنت، مع أنّ المراد هو أنّ المتكلّم يريد الإخبار بأنّه هو الماشي [٢٩].

من هذا المبدأ، نستخلص بأنّ هذا القسم من التقديم والتأخير ليس كسابقه الذي هو على نية التأخير، الذي يعنى به تقديم الأهم والعناية به، ولكن هذا القسم يغيّر المعنى المراد إيصاله، خاصة تلك المعاني الثانوية التي تكمن في تقديم هذه على تلك أو تأخيرها. ذلك لأنّ تقديم اللفظة فيه يأخذ حكماً جديداً لَمْ يكن حكمها حين كانت متأخّرة. ففتحت على نفسها باباً غير بابها، وإعراباً غير إعرابها. وبالتالي صار معناها الجديد في السياق غير معناها السابق - إذا لَمْ تُقَدّم.

ونضرب مثلاً في سورة الكهف لهذه القضية. قال تعالى : ﴿ وَكذلكَ أعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أنّ وَعْدَ اللهِ حقٌ وأنّ السّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أمْرَهُمْ، فقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا، رَبُّهُمْ أعْلَمُ بِهِمْ، قالَ الذِينَ كَفَرُوا على أمْرِهِمْ لَنَتّخِذَنّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [٣٠]. فالشاهد هنا لفظة (بنيانًا) و(مسجدا)، فكلتا اللفظتين جاءتا بعد (عليهم) ولَمْ تأتِ قبلها، أي لَمْ تأتِ الآية (ابنوا بنيانًا عليهم) ولا (لنتّخِذَنّ مسجِدًا عليهم). فتقديم (عليهم) على (بنيان) وكذلك على (مسجد) يرجع — والله أعلم — إلى غرضين بلاغيين. أولهما : للتخصيص. يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية "فقالوا حيت توفى الله أصحاب الكهف ابنوا عليهم بنياناً أيْ على باب كهفهم لئلا يتطرّق إليه الناس ضنًا بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم. لنتّخِذَنّ على باب الكهف مسجدًا يصلي فيه الناس ويتبركون بمكانهم" [٣١].

---

٢٩ - انظر العلوي، يحيى بن حمزة العلوي اليمني، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تدقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، بيروت، دار الكتب العلمية، ج٢، ص٧٢- ٧٣، بتصرف.

٣٠ - سورة الكهف، الآية ٢١.

٣١ - الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود، الكشاف، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الجزء٢، الطبعة الأخيرة، ١٩٧٢م، ص٤٧٧.

من هذا التفسير للآية الكريمة نفهم أنّ غرض بناء المسجد كان تخصيصاً لهؤلاء الفتية أصحاب الكهف الذين بعثهم الله بعد أنْ أنامهم ثلاثمائة وتسع سنين. فهؤلاء الفتية هم المَعْنِيون في هذه القصة، والحديث والجدل كان مخصّصًا عليهم. لهذا جاءت لفظة (عليهم) مُقَدّمة على (مسجدا) — وكذلك الحال في ابنوا عليهم بنيانا — أمّا لو قُدِّمتْ لفظة (مسجدا) لكان التخصيص على المسجد، وكأنّهم قالوا: هيا نختار مسجداً معَيّنًا ونأتي به أمام كهف هؤلاء الفتية المعجزة.

أمّا الغرض البلاغي الثاني فهو لمناسبة الفاصلة. فالفاصلة القرآنية سر من أسرار القرآن لا يمكن استثناؤها عن مجموع الأغراض البلاغية سواء في التقديم والتأخير أو في الحذف والذكر أو في الفصل والوصل أو في أي لون من ألوان البلاغة. فهي مأخوذة في الاعتبار كغرض بلاغي وسر من أسرار معاني القرآن العظيم. فقد كان كثيرٌ من المفسرين يعللون نظماً محدداً للآية بأنه مراعاة للفواصل. فـــالقرطبي يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وتَبَتّلْ إليه تَبْتِيلا ﴾[٣٢]، قال : "ويقال : كيف قال : تبتيلاً، ولَمْ يقل : تبتّلاً؟ قيل له: لأن معنى تبتل : بتل نفسه، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل" [٣٣].

كما نجد الإمام الزمخشري يفسّر قوله تعالى : ﴿ فلا يُخْرِجَنّكُمَا مِن الجَنّةِ فَتَشْقى ﴾[٣٤] : "وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكهما في الخروج لأن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم. كما أن في ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على الفاصلة" [٣٥].

وبهذا كتن تعليل الزمخشري أنّ إسناد الفعل إلى آدم عليه السلام كان مراعاة للفاصلة،

---

٣٢ – سورة المزمل، الآية ٨.

٣٣ – القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار كاتب عربي، القاهرة، ط٣، ١٩٦٦-١٩٦٧م، ص٦٧٨.

٣٤ – سورة طه، الآية ١١٧.

٣٥ – الزمخشري، الكشاف، ج٣، ٩٢.

مع أن المخالفة صدرت من آدم وزوجه حواء. ففاصلة الآية التي قبلها : (إلا إبليس أبى)، والتي بعدها : (ولا تعرى)، انتهيتا بألف مقصورة، فكان من المناسب أن يقول : (فتشقى)، ولم يقل : فتشقيا بألف التثنية.

والشوكاني يعلل تأخير ما حقه التقديم، كما في قوله تعالى : ﴿ إنّ الإنسانَ لربّهِ لَكَنُود ﴾[٣٦]، فيقول : "والمراد بالإنسان بعض أفراده، وهو الكافر. والكنود الكفور للنعمة وقوله لربه متعلّق بكنود قُدِّمَ لرعاية الفواصل" ، إذ تقدير الآية : إن الإنسان كنود لربه، فعدل عن ذلك رعاية للفواصل.[٣٧] فالآيتان بعدها، (وإنه على ذلك لشهيد) و(وإنه لحب الخير لشديد)، انتهيتا بحرف الدال، فكان من المناسب تأخير ما حقه التقديم، مراعاة للفاصلة.

وعودة إلى سورة الكهف مع الآية الكريمة ﴿ قالَ الذينَ كَفَرُوا على أمْرِهِمْ لَنَتّخِذَنّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ لوجدنا أنّ تأخير (مسجدا) فيها روعة الإيقاع الموسيقي كفاصلة للآية، فلننظر في قوله تعالى ﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطّف وَلَا يُشعِرَنّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُم يَرْجُمُوكُم أَو يُعِيدُوكم فِى مِلّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا * وكذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيهِم لِيَعْلَمُوا أَنّ وَعْدَ ٱللّهِ حَقٌّ وَأَنّ ٱلسّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَينهم أَمْرَهُم فقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ، قالَ الذينَ غَلَبُوا على أَمْرِهِمْ لَنَتّخِذَنّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾[٣٨]، نجد فواصلها انتهت بحرف الدال المنصوبة. ولو كانت فاصلة الآيات واقعة في (ـــهِمْ) لوجدنا الوقوف على (يعيدوكم في ملّتِهِمْ – فقالوا ابنوا عليهِمْ – ربهم أعلم بهِمْ – قال الذين غلبوا على أمرهِمْ – لمسجدًا نتخذ عليهِمْ). والشوكاني يعلل تفسيره لقوله تعالى : (وكان رسولاً نبيًّا)[٣٩]، بقوله : "وكان المناسب ذكر الأعم

---

٣٦ – سورة العاديات، الآية ٦.

٣٧ – الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير : الجامع بين فن الرواية والدراية من علم التفسير، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٢٩م، ج٥، ص٤٨٤.

٣٨ – سورة الكهف، الآيات ١٩-٢١.

٣٩ – سورة مريم، الآية ٥٢.

قبل الأخص، إلا أن رعاية الفاصلة اقتضت عكس ذلك كقوله في طه : (برب هارون وموسى)" [٤٠]، والمراد بذكر الأعم هنا : أن وصف النبوة أعم من وصف الرسالة. هذا يعني أنّ المناسب أن تكون الآية (وكان نبيا رسولا)، لكن الفاصلة القرآنية لها بلاغة في القول، وغرض لا يمكن التغاضي عنه. فالآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية انتهت بياء وألف، فالآية التي قبلها، قوله سبحانه: (لسان صدق علياً)، والتي بعدها : (وقربناه نجيا)، فكان مجيء الآية (وكان رسولاً نبيا) أبلغ وأرع. وسورة الكهف من أولها إلى آخرها كانت فواصلها علامة النصب المنوّنة. وهذا التنوين يُظْهِرُ الفتحة عند الوقوف عليه، وبالتالي تَظْهَرُ الروعة الموسيقية القرآنية في فواصل الآيات (أَحَدَ – أَبَدَ – مسْجِدَ... إلى آخر السورة).

نعود من جديد إلى قضية تقديم الكلمة لا على نية التأخير لنحلل مثالًا آخرا، نلاحظه في قوله تعالى ﴿ فَلا تُمارِ فيهِمْ إلاّ مِرَاءً ظاهِرًا، ولا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[٤١]. فالشاهد هنا في (ولا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا)، فقد قدّم (منهم) على (أحدا) ولم يقل (ولا تستفتِ فيهم أحدًا منهم). فالغرض البلاغي من هذا التقديم يرجع إلى غرضين، أمّا الغرض الأول : "النص على عموم السلب، يعني شمول النفي لكل فرد من أفراد المسند إليه" [٤٢]. وتفسير ذلك هو، أنه لو قال (ولا تستفْتِ فيهم أحدًا منهم) لكان المعنى أنّ هناك أفرادًا مَعْنِيّينَ من بني إسرائيل – لَمْ يُرِدْ الإفصاح عنهم – نهى الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم أنْ يسألهم ويستفتي فيهم عن قصة أصحاب الكهف. وكأنّه يقول (هناك أحدٌ – والمقصود من أحد: شخصٌ واحدٌ أو فريقٌ من بني إسرائيل – لا تسألهم

---

٤٠ – الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير : الجامع بين فن الرواية والدراية من علم التفسير، ج٣، ص٣٣٩.

٤١ – سورة الكهف، الآية ٢٢.

٤٢ – عتيق، عبد العزيز، في البلاغة العربية علم المعاني والبيان والبديع، ص١٣٤.

وتستفتهم عن القصة). أمّا الصورة التي جاءت بها الآية الكريمة تدلُّ على أنّ النهي واقع على الجميع منهم، فلا تستفْتِ – يا محمد منهم أيّ أحدٍ كان – والله أعلم – .

أمّا الغرض البلاغي الثاني فهو مراعاة نظم الكلام وهو الفاصلة. فكما ذكرنا في سطور سابق أنّ الفاصلة القرآنية تحمل في طياتها روعة بلاغية، وجمال موسيقي، هي في حد ذاتها سرٌ من أسرار هذا الكتاب المبارك. فهذه الآية لاحقة بالآيات التي استشهدنا بها في السطور السابقة. فانظر الإبداع القرآني وجماله الموسيقي في قوله: (وَلْيَتَلَطَّف وَلَا يُشعِرَنّ بِكُمْ أَحَدًا – وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا – لَتَتّخِذَنّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا – ولا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا). إنّ الفاصلة في هذه الآيات قد لعبت دورًا بلاغيًا كبيراً في إظهار الجمال الموسيقي بين هذه الآية وبين أختها، فجعلتها متماسكة متناسقة ومتلائمة مع بعضها البعض. وهي في الوقت نفسه أبانت المعاني الثانوية من تقديم هذه اللفظة عن تلك. فهذه الفواصل لَمْ تأتِ اعتباطًا، بل جاءت لأداء وظيفتها على أكمل وجه، وإعطاء المتلقى المعنى الحقيقي الذي لايقبل تغيير أو استبدال أية كلمة من كلماتها الموضوعة إلى موضعٍ آخر، بل لابُدّ أن تبقى في مكانها كما أنزلت.

وشاهدٌ آخر شبيهٌ بالآنف في قوله تعالى ﴿ ويَوْمَ نُسَيّرُ الجِبَالَ وتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[٤٣]. فقوله تعالى (فَلَمْ نغادرْ منهم أحدًا) بمعنى أنّ هذا الحشر لَنْ يُفْلِتَ منه أيّ شخصٍ، فالجميع موجود، ولا سبيل للهرب والفرار. وهنا أودُّ أن أقف على جمال وروعة بلاغة هذه الآية الكريمة حين جاء بالفعل المضارع في (نسيّرُ – تَرى)، ثم جاء بالفعل الماضي في (حشرناهم – لَمْ نغادر). ففي الجزء الأول من الآية تصوير حيٌ لمشهد من مشاهد يوم القيامة، جاءت الأفعال المضارعة لتُصوِّر المشهد وكأنّه صائرٌ أمام العين. أمّا الجزء الثاني من الآية فجاءت الأفعال الماضية لتؤكّد على حتميّة وقوع الحدث أيْ أنّ الحَشْرَ واقِعٌ لا محالة وأنّكم ستُحْشَرون ولن

---

٤٣ – سورة الكهف، الآية ٤٧.

يغادر منكم أحدٌ من ذلك المكان. وهذه الظاهرة البلاغية البديعية تُسَمّى بالالتفات، وهو الإتيان بمعنى ثم ينصرف إلى أسلوب آخر بمعنى آخر. ونوع الالتِفات هنا جاء بأسلوب الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل. فالفعل الماضي إذا أخبر عن المستقبل الذي لَمْ يوجد بعدُ، كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده لأنّ الفعل الماضي يعطي من المعنى أنّه قد كان وَوُجِد. ففي هذا الأسلوب دلالة بلاغية عظيمة وهي أنّ حشرهم قبل تسيير الجبال وبروز الأرض ليشاهدوا تلك الصورة الحيّة التي وصفها وكأنها صائرة أمام أعينهم الآن. فانظر إلى جمال هذه الآية وتصويرها التي لا يتوخّاه إلاّ المتمرِّس بفن القول والعارف بأسرار الفصاحة والبلاغة [٤٤].

التقديم والتأخير مع همزة الاستفهام

يذكر عبد القاهر نوعًا آخرًا من أنواع التقديم والتأخير يكون مع همزة الاستفهام. فهذه الهمزة البلاغية تأتي تارة يليها الفعل، وتارة أخرى يليها الاسم. فما هو سر هذا التقديم والتأخير؟

"إنّ موضع الكلام على أنّك قلتَ (أفعلْتَ؟) فبدأتَ بالفعل كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أنْ تعلم وجوده. وإذا قُلْتَ (أأنْتَ فعلْت؟) فبدأتَ بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التّردُّد فيه.

ومثال ذلك أنّك تقول (أبَنَيْتَ الدار التي كُنْتَ على أنْ تبْنيها؟ أقُلْتَ الشعر الذي كان في نفسك أنْ تقوله؟ أفَرَغْتَ من الكتاب الذي كُنْتَ تكتبه؟)، تبدأ في هذا ونحوه بالفعل لأنّ السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه، لأنّك في جميع ذلك مُتَرَدِّدٌ في وجود الفعل وانتفائه وجوّز أنْ يكون قد كان وأنْ يكون لَمْ يكُنْ. وتقول (أأنتَ بنيْتَ هذه الدار؟ أأنْتَ قُلْتَ هذا الشعر؟ أأنْتَ كتبتَ هذا الكتاب؟)، فتبْدأ في ذلك كلِّه بالاسم، ذلك لأنّك

---

٤٤ – عتيق، عبد العزيز، في البلاغة العربية علم المعاني والبيان والبديع، انظر ص٥٧٢ — ٥٧٣ بتصرف.

لم تشكّ في الفعل أنّه كان. كيف وقد أشَرْتَ إلى الدار مبْنيّة، والشعر مقولاً، والكتاب مكتوباً؟ وإنّما شكَكْتَ في الفاعل من هو .." [٤٥].

ويضيف عبد القاهر أنّك : "لو قلت (أأنت بنيْتَ الدار التي كنت على أنْ تبنيها؟ أأنتَ قلت الشعر الذي كان في نفْسِكَ أنْ تقوله؟ أأنت فرغْتَ من الكتاب الذي كنتَ تكتبه؟) خرَجْتَ من كلام الناس. وكذلك لو قُلْتَ (أبنيْتَ هذه الدار؟ أقُلْتَ هذا الشعر؟ أكتبْتَ هذا الكتاب؟)، قُلْتَ ما ليس بقول ذاك لفساد أنْ تقول في الشيء المُشاهَد الذي هو نصب عينك (أموْجود أم لا؟) .." [٤٦].

وعليه، قد أفادنا عبد القاهر أنّ همزة الاستفهام في قضية التقديم والتأخير تفيد التقرير، فلا يستقيم المعنى عندما تشك في الفاعل وأنت تعلم أنه هو الذي قام بالفعل. فأنْت تعلم أنه كان يكتب كتاباً، فهل من المنطق أنْ تسأله أهو فرغ من كتابة الكتاب الذي كان يكتبه؟ إذن، فالتقرير الذي أفادنا به عبد القاهر يكون في تقديم الاسم عُقْب همزة الاستفهام على الفعل تارة أو تقديم الفعل على فاعله تارة أخرى. وقد اسْتشهَد لما ذهب إليه بقول الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام مع قوم نمرود : ﴿ أأنت فَعَلْتَ هذا بآلِهَتِنا ياإبْراهيم ﴾[٤٧]. فهذه المُساءلة من قوم نمرود لإبراهيم عليه السلام "لَمْ يريدوا أن يقرّ لهم بكسر الأصنام ــ الذي قد كان — ولكن بأنّه منه كان، وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم (أأنت فعلت هذا) وقال هو عليه السلام في الجواب (بل فعله كبيرهم هذا)، ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب (فعلْت أو لم أفْعَل)" [٤٨]، فالسؤال هنا مطروحٌ على الفاعل وليس على الفعل.

---

٤٥ – الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، ص٨٥.

٤٦ – نفسه، ص٨٥.

٤٧ – سورة الأنبياء، الآية ٦٢.

٤٨ – الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، ص٨٦.

وبالمثل في قوله تعالى : ﴿.. قال أخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَها، لقَدْ جِئتَ شيئاً إمرا﴾[٤٩]، ففي هذه الآية يسأل موسى نبيّ الله الخضر عليهما السلام عن أمْرٍ قد استبان مَنْ الذي قام بالفعل، فجاء الاستنكار على الفعل نفسه لا على الفاعل، فقال (أخرقتها؟) ولم يقل (أأنت خرقتها؟). وكيف يقول : أأنت خرقتها؟ وهو يعلم من قام بخرق السفينة، فالحدث كان أمام عينيه. كذلك نجده يكرّر نفس أسلوب السؤال عندما قتل الخضر عليه السلام الغلام مخافةً أنْ يرهق أبواه بطغيانه، فقال ﴿ .. أقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ، لقَدْ جِئتَ شيْئاً نُكْرا ﴾[٥٠]، ولَمْ يقلْ (أأنتَ قتلت نفساً زكيّة ..).

ثمّ يضيف عبد القاهر نكتة أخرى قد ترتّبَتْ على هذا التقرير وهي أنّك تستطيع أنْ تسأل (أقُلتَ شعراً قط؟) فيكون الكلام مستقيماً، أمّا لو سألت (أأنتَ قُلْتَ شعراً قط؟) كان خطأً "لأنّه جمع بين إثبات الفعل والشك في حدوثه، إذْ السؤال مُسَلّط على الشخص لا على فعله ، فكان ينبغي ألاّ تضيف كلمة (قط)، والهمزة فيما سبق تقرير بفعل قد كان، وإنكارٌ له لِمَ كان؟ وتوبيخ لفاعله عليه .." [٥١]. فتقديم الاسم تارة وتقديم الفعل تارة أخرى عقب همزة الاستفهام تكون تبياناً لدقائق بلاغية في المعنى وليست للاهتمام والعناية فحسب.

تقديم المُسْند إليه على المُسْند

يضرب عبد القاهر مثلاً ليوضّح من خلاله الغرض من تقديم المسند إليه على المسند، فيقول : "إذا قلت : ما فعلت، كنت نفيْت عنك فعلاً لَمْ يثبت أنّه مفعول، وإذا قلت : ما أنا فعلت، كنت نفيْت عنك فعلاً ثبت أنّه مفعول" [٥٢]. "ويُفْهَمُ من كلام عبد القاهر أنّ تقديم الضمير أفاد تخصيص المسند إليه بنفي الخبر الفعلي، بينما أثبته لغيره.

---

٤٩ – سورة الكهف، الآية ٧١.

٥٠ – سورة الكهف، الآية ٧٤.

٥١ – عامر، فتحي أحمد، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز، ص٨٧.

٥٢ – السابق، ص٨٧.

والأمر نفسه يصلح بدون النفي. فلو قلت (أنا فعلت هذا) كنْتَ قد خصّصْتَ لنفسك فِعْلَ ذلك الشيء. أمّا لوقلت (فعلْتُ هذا) كنت قد أثبتّ لنفسك فعل ذلك الشيء. ، لكنك لم تخَصّص الفعل لنفسك، فغيرك يفعله أيضاً.

وفي سورة الكهف شاهد لهذا النوع من التقديم والتأخير، وذلك في قوله تعالى ﴿ نحن نقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بالحَقِّ ﴾[٥٣]. فالله سبحانه وتعالى عندما قدّم المسند إليه (نحن) على المسند (وهو الفعل نقصُّ) أراد به تقرير صحة حقيقة القصة أنّها من عنده سبحانه وتعالى. فهو الذي يقُصُّ ويخبر عن حقيقة نبأهم وليس غيره. فغيره يفترون في سرد القصة، ويجادلون في أمور هؤلاء الفتية وفي مدة إقامتهم داخل الكهف. لهذا جاءت الآية ٢٢ (قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلاّ قليل، فلا تمارِ فيهم إلاّ مراءً ظاهرًا، ولا تسْتَفْتِ فيهم منهم أحدًا). إذن فإنّ الآية تحمل غرضًا بلاغيًا ألا وهو تقرير صحة القصة أنّها من عنده سبحانه وتعالى، وتحمل معها أيضًا غرضًا بلاغيًا ملازمًا للغرض الأول ألا وهو التوكيد. فالضمير نحن أعرف المعارف ولا يغنى عنه في أداء المعنى المقصود لدلالته الأكيدة في المعنى وأنّ الخبر من عند الله لا يعرفه محمد صلى الله عليه وسلم ولا قومه من قبل، وإنّما نحن نذكر ذلك لك ولأمّتك للعظة والعبرة. فتقديم نحن في الكلام أكّد هذا كله – والله أعلم – .

ولو جاءت الآية (نقصُّ عليك نبأهم بالحق) دون تقديم (نحن) على الفعل (نقص)، لأصبح معنى الآية أنّ هناك أيضاً مَنْ قصّ أو مَنْ سيقصُّ هذه القصة بالحق، فبهذا لَمْ تَعْنِ الآية تقوية حكم صدق القول عن حقيقة النبأ عليه فقط، بل قام بإثبات الإخبار عن حقيقة النبأ لنفسه دون تقرير يُذكر. وهذا لا يعني أنّ غيره لا يخبر القصة بالصورة الحقيقية نفسها. وهي بالتالي أيضًا ابتعدت عن معنى التوكيد بأنّ القصة الحقيقية الصحيحة تكون فقط من عند الله.

---

٥٣ – سورة الكهف، الآية ١٣.

كما أنّ في الآية نفسها غرضًا بلاغيًا آخر وهو تخصيص سرد حقيقة القِصّة وصحتها إلى الله سبحانه وتعالى. فتقديم المسند إليه على المسند دلّ على أنّ هذه القصة التي سنقُصُّها عليك هي من عندنا نحن.

وعبد القاهر لَمْ يقف إلى هذا الحد في توضيح أسرار بلاغة التقديم والتأخير من هذا النوع، بل قام بتحليل دقيق في قضية تقديم المسند إليه على المسند. فلا يصح لقائل أنْ يقول : (ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد من الناس) فإنّ الجزء الأول من العبارة يُثْبِتُ أنّ قولاً قيل وأنّ المُتكلِّم لَمْ يقله، بينما الجزء الثاني ينفي أنْ يكون هذا القول قد قيل ألبتّة، وفي ذلك تناقض. وقال أيضاً إنّه لا يصح لك أنْ تقول : (ما أنا ضربت إلاّ زيداً) لأنّ تقديم المُسْند إليه يقتضي نفي الضرب منك، ونقض النفي بـــ (إلاّ) يقتضي أنّك ضربت زيداً، وفي ذلك تناقض. وصورة ثالثة مردودة هي أنْ تقول : (ما زيداً ضربت ولا أحداً من الناس)، لأنّ الجزء الأول في العبارة يقتضي أنّ ضرباً حدث منك غير أنّه لم يقعْ على زيد، وبقيّتها تقتضي أنّك لَمْ تضربْ أحداً مُطلقاً. وصورة رابعة مردودة أيضاً هي أنّك لا تستطيع أنْ تقول : (ما زيداً ضربتُ ولكن أكْرمته)، لأنّ صدر العبارة تُثْبِتُ فيه الفعل وتنْفي تَعَلُّقَه بزيد، وبقيّتها تشعر بأنّك قد نفيْتَ الفعل الأوّل وأثْبَتّ الثاني، والتعبير الصحيح أنْ تقول : (ما ضربتُ زيداً ولكن أكرمته)[٥٤]، أي تقدِّم الفعل عن المفعول.

المعاني الكامنة من وراء التقديم والتأخير

لَمْ يقف عبد القاهر في تبيانه أسرار التقديم والتأخير إلى هذا الحد فحسب، بل أخذ يُظْهر نكتةً بعد أخرى تطرأ من هذه القضية. ومن بين هذه النكت، والتي تعنينا في هذا المقام، أنّ "المبتدأ لَمْ يكن مبتدأً لأنّه منطوق به أوّلاً، ولا كان الخبر خبراً لأنّه مذكور بعد المبتدأ، بل كان المبتدأُ مبتدأً لأنّه مُسْنَدٌ إليه ومُثْبتٌ له المعنى، والخبر خبراً

٥٤ – ضيف، شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، ص١٧٣– ١٧٤.

لأنّه مُسْند ومُثْبتٌ به المعنى" [٥٥]، وإلاّ صحّ لنا أن نقول أنّ الخبر مُقدّمٌ في اللفظ والنيّة به التأخير ، وهذا بالطبع غير مراد. ففي قولنا (الحبيب أنت) و (أنت الحبيب) اختلاف واضح في معنى القولين، مع أنّ اللفظتين معرفة، بيد أنّ هذا التقديم والتأخير الملحوظ يشير إلى معاني دقيقة خفيّة لا يحسّ بها إلاّ ذو ذوق وعلم ببيان القول. فمعنى (الحبيب أنت) "أنّه لا فضل بينك وبين مَنْ تحبّه إذا صَدَقَتْ المحبّة، وأنّ مَثَل المتحابّيْن مثل نفس يقتسمها شخصان، كما جاء عن بعض الحكماء أنه قال : (الحبيب أنتَ إلاّ أنّه غيرك). فهذا كما ترى فرق لطيف ونكتة شريفة، ولو حاولت أنْ تفيدها بقولك : (أنت الحبيب)، حاولت مالا يصح، لأنّ الذي يعقل من قولك : (أنت الحبيب) هو ما عناه المتنبي في قوله :

أنتَ الحبيبُ ولكني أعوذُ به مِنْ أنْ أكونَ مُحباً غيْرَ محبوبِ

ولا يخفى بعد ما بين الغرضين. فالمعنى في قولك : (أنت الحبيب) أنّك الذي أختصّه بالمحبة من بين الناس. وإذا كان كذلك، عرَفْتَ أنّ الفرق واجب أبداً، وأنّه لا يجوز أنْ يكون (أخوك زيد) و (زيد أخوك) بمعنى واحد" [٥٦].

من هنا نعْرِف أنّ التقديم والتأخير يقتضيهما حال ما بحسب الأغراض المراد بها. لهذا أخذ عبد القاهر يُخَطِّئ مَنْ يقسّم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره إلى قسمين "فيجعل مفيداً في بعض الكلام وغير مفيد في بعض. وأنْ يعلّل تارة بالعناية وأخرى بأنّه توسعة على الشاعر والكاتب حتى تطّرِد لهذا قوافيه ولذلك سجعه. لأنّ من البعيد أنْ يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى" [٥٧]. فقضية التقديم والتأخير في الكلام يقتضي فيها علل بيانية وأغراض يعني بها القائل، ففائدة التقديم لا تكون كتلك

---

٥٥ – العلوي، يحيى بن حمزة العلوي اليمني، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ص١٨٩.

٥٦ – نفسه، ص١٩٠.

٥٧ – الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، ص٨٤.

الفائدة التي يأتي بها مع التأخير. وهذه الأغراض تتعلّق بالمُسْنَد إليه وهو المبتدأ، أو تتعلّق بالمُسْنَد وهو الخبر الذي مكانه الطبيعي التأخير، فإذا قُدِّم أحدهما عن الآخر كان لغرضٍ ما.

ولنا في هذا تحليل بلاغي لنتعرّف على المعاني الكامنة من وراء قضية التقديم والتأخير. فانظر في قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[٥٨]، وفي قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ ﴾[٥٩]، حيث إننا نجد عظمة التقديم والتأخير في هاتين الآيتين عند (السماء و الأرض). ففي سورة الزلزلة نلاحظ تقدُّم الفعل (زُلْزِلَتْ) على الأرض، بينما في سورة الإنشقاق تقدّمَتْ السماء على فعلها (انْشَقّتْ)، مع أنّه كان بالإمكان أنْ تأتي (إذا الأرض زُلْزِلَتْ) أو (إذا انشقّت السماء)، بيْدَ أنّ نظم القرآن البديع لا يسمح بتغيير مواضع ألفاظه حيث أُنْزِل، وذلك لأسباب بلاغية ودلالات معنوية اختصّتْ بها هذه الآيات الكريمة. فما سرُّ هذا النظم البديع في تقديم الفعل في تلك وتأخيره في هذه؟

لقد جاء فعل الزلزلة بعد أداة الشرط (إذا)، وتقدّم موضعه على الأرض في السياق المبارك لعظمة شأن هذه الزلزلة. فهي زلزلة لَمْ يحدث لها مثيل على مدى تاريخ هذه الأرض. وتفسير ذلك — والله أعلم — أنّ المعروف لدينا هو أنّ الأرض تهتز وتتزلْزَل، ولكن الزلزلة الحاصلة فيها هي زلزلة على بعض بقاعها، وفي مناطق متفرّقة، وعلى فترات تقتضيها ظروف جيولوجية مدروسة. أمّا الزلزلة التي تحدّثَتْ عنها الآية الكريمة فهي زلزلة من نوع آخر ليس لها أيّة علاقة بعلم الجيولوجيا البشري. زلزلة على الكرة الأرضية بكاملها، لَمْ يحدث لها مثيل من قبل ﴿ ... إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[٦٠]، فالعظمة والمعجزة الموجودة في هذه الآية واقعة في الزلزلة نفسها، لا على الأرض، فالأرض كما هي، لَمْ يتغيّر فيها شيء، وهي التي نعرفها الآن. لذا تقدّم فعل الزلزلة على الأرض في هذه الآية.

---

٥٨ – سورة الزلزلة، الآية ١.

٥٩ – سورة الإنشقاق، الآية ١.

٦٠ – سورة الحج، الآية ١.

أمّا في سورة الإنشقاق فجاءت السماء تتقدّم على الفعل (انشقّت) لأنّ العظمة في هذه الظاهرة — والله أعلم — واقعة على السماء نفسها، لا على فعل الإنشقاق. فكيف بالسماء وهي مخلوق عظيم لا نعرف أوّلَها من آخرِها، ولا نعرف بُعْدَ مسافتها عنّا، أنّه سيأتي يومٌ من الأيام تنشَقُّ وتتمزّق، وتصبح وردةً كالدهان؟ كيف يكون منظرها أمامنا؟ وكيف لنا أنْ نتخيّله؟... أمّا عملية الانشقاق فهي معروفة لدينا. فلا غرابة في عملية الانشقاق نفسها، لكن الإعجاز والدهشة في تلك السماء. أضف إلى هذا أنّ السماء دخان، والدخان لا ينشق، لكن القدرة الإلاهية ستُحْدِثُ فيها هذا الانشقاق، وستظهر لنا حادثة لَمْ يكن لها مثيل من قبل في حياة البشرية. لذا كان الأحرى في هذا المقام أنْ تتقدّم السماء على الفعل انشقّت لعظمة شأنها والله أعلم.

ونموذج آخر لسر التقديم والتأخير والمعاني الكامنة التي أوجدتها هذه القضية وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإنْسُ وَالجِنُّ عَلى أنْ يَأتوا بِمِثْلِ هَذا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثْلِه ﴾[٦١]، نجد لفظة الإنس قُدِّمَتْ على الجن، بينما في قوله تعالى : ﴿يَامَعْشَرَ الجِنِّ وَالإنْسِ إنْ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنْفُذوا مِنْ أقْطَارِ السّمَواتِ والأرْضِ فَانْفُذُوا ﴾[٦٢]، نجد تقديم الجن على الإنس فيها، ذلك لأن مضمون الآية في سورة الإسراء هو التحدي بالإتيان بمثل القرآن، والتحدي القائم فيها هو تحدٍ على لغة القرآن في نظمه وفي بلاغته، وحسن بيانه وفصاحته. والإنس في هذا المجال هم المقدمون، وهم أصحاب البلاغة، وأعمدة الفصاحة، وأساطين البيان. فإتيان ذلك من قبلهم أولى، ولذلك كان تقديمهم على الجن أولى في هذه الآية ليناسب ما يتلاءم مع طبيعتهم. أما الآية الثانية فإن الحديث فيها عن النفاذ من أقطار السموات والأرض، ولا شك أن هذا هو ميدان الجن لتنقُّلِهم وسرعة حركتهم، وبلوغهم أن يتخذوا مقاعد في السماء للاستماع، كما قال تعالى على

---

٦١ – سورة الإسراء، الآية ٨٨.

٦٢ – سورة الرحمن، الآية ٣٣.

لسانهم : ﴿ وأنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسّمْعِ ﴾[٦٣]، فقُدِّم الجن على الإنس في هذا المقام لأنّ النفاذ يناسب خواصهم وماهية أجسامهم أكثر من الإنس.

وفي سورة الكهف نجد قوله تعالى : ﴿ ولقد صَرّفْنَا في هذا القرآنِ للناسِ مِنْ كُلِّ مَثَل، وكان الإنسانُ أكثَرَ شَيْءٍ جَدَلا ﴾[٦٤]، أما في سورة الإسراء جاء قوله تعالى : ﴿ ولقد صَرّفْنَا للناسِ في هذا القرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَل، فَأَبَى أكثر الناس إلاّ كُفُورًا ﴾[٦٥].

ففي سورة الكهف قُدِّم (في هذا القرآن) على (للناس)، بينما في سورة الإسراء جاء العكس. مع أنّه كان من الممكن أن تأتي الآية في سورة الكهف كما أتت في سورة الإسراء أو العكس. وهنا يأتي السؤال يطرح نفسه ما هذا السرُّ القرآني والإعجاز البياني، لماذا هذا التقديم والتأخير الحاصل في الآيتين؟

والسر – والله أعلم – هو أننا وجدنا في سورة الإسراء أنّ الكلام تقدّم فيها على الإنسان ونعم الله عليه ورحمته به فقال تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسانِ أعْرَضَ وَنَأَى بِجَانبه وإذا مَسّهُ الشّرُّ كان يَؤُوسًا ﴾[٦٦]، إلى أنْ يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ولَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنّ بالذي أوْحَيْنا إليك ثمّ لا تجد لكَ به عَلَيْنَا وكيلا * إلاّ رَحْمَةً مِنْ رَبّكَ إنّ فضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرا * قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يأتوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ لا يَأْتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[٦٧]، كما أنّ فاتحة السورة بدأت بقوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسْرى بعبده ليلاً مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأَقصَى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾[٦٨]، ثم تكلم على بني إسرائيل ﴿ إنّ هذا القرآنَ يهدي للتي هيَ أَقْوَمُ وَيُبَشّرُ المؤمنين الذين يعمَلُونَ الصالحات أنّ لهم أجراً كبيرا ﴾[٦٩]، بمعنى أنّ هذه السورة في

---

٦٣ – سورة الجن، الآية ٩.

٦٤ – سورة الكهف، الآية ٥٤.

٦٥ – سورة الإسراء، الآية ٨٩.

٦٦ – سورة الإسراء، الآية ٨٣.

٦٧ – سورة الإسراء، الآيات ٨٦-٨٧-٨٨.

٦٨ – سورة الإسراء، الآية ١.

٦٩ – سورة الإسراء، الآية ٩.

سرد آياتها بدأت بذكر الناس ثمّ جاء ذكر القرآن، فكان المناسب أن يتقدم ذكر الناس فيها على ذكر القرآن.

أمّا بالنسبة لآية سورة الكهف فالأمر يختلف. فالسر البلاغي في تقديم (في هذا القرآن) على (للناس) — والله أعلم — هو أنّ السورة بدأت بالكلام عن الكتاب وهو القرآن : ﴿ الحمدُ للّه الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعلْ له عِوَجًا * قيماً لينذرَ بأْساً شديداً مِنْ لَدُنْهُ ويبشّرَ المؤمنين الذين يعملون الصّالحاتِ أنّ لهم أجراً حَسَناً ﴾[٧٠]، بعدها بدأ يذكر قصة أصحاب الكهف، ثمّ قصة الرجلين، ثم قصة موسى والخضر، ثم قصة ذي القرنين [٧١]، أي أنّ هذه السورة افتتحت بذكر القرآن ثم جاء ذكر الناس فكان المناسب أن يتقدّم ذكر القرآن على الناس في هذه الآية. وهذا تناسب عجيب بين الآية وفاتحة السورة في الموضعين.

الدواعي البلاغية من التقديم والتأخير

للتقديم دواع وأغراض متعدّدة متنوّعة، يتعيّن أحدها بحسب العنصر المقدّم، وبحسب المقامات والأحوال، إلاّ أنّ الغرض الرئيس من تقديم لفظة أو كلمة عن أختها هو كَوْن ذكرها أهمّ من ذكر باقي أجزاء الكلام، والعناية به أكثر من العناية بذكر غيره، وهو ما عبّر عنه سيبويه بقوله في الفاعل والمفعول : "... وكأنّهم يقدّمون الّذي بيانه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يُهمّانهم ويعنيانهم" [٧٢]، وجعله الإمام عبد القاهر قاعدةً للتقديم بقوله : "واعلم أنّا لَمْ نجدهم اعتمدوا فيه شيئًا يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام ..." [٧٣]، إلاّ أنّه أكّد أنّ الاقتصار على العناية والاهتمام لا يكفي لبيان سبب تقديم لفظة ما عن أختها، بل يجب أن يُفسّر وجه العناية فيه وسبب أهمّيّته

---

٧٠ – سورة الكهف، الآية ١-٢.

٧١ – مسلم، مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، ص١٩١، بتصرف.

٧٢ – سيبويه، الكتاب، ج١، ص٦٨.

٧٣ – الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٨.

الّتي جعلته يتقدّم في حين تأخّر غيره. "فينبغي أنْ يُعْرَفَ في كل شيء قُدِّمَ في موضع من الكلام مثل هذا المعنى، ويفسّر وجه العناية فيه هذا التفسير. وقد وقع في ظنون الناس أنّه يكفي أنْ يقال إنّه قدّم العناية ولأنّ ذكره أهم، من غير أنْ يذكر من أين كانت تلك العناية ولِمَ كان أهم" [٧٤].

إنّ العناية والاهتمام باللفظة لا تكون من حيث إنها لفظة مُعيّنة أو مَعنيّة، بل قد تكون العناية بحسب مقتضى الحال. فما كانت به العناية أكبر قَدّمْناه في الكلام. ولذا نجد بعض الأساليب تُقدِّم كلمة في موضع ثم تُؤخرها في موضع آخر، لأن مراعاة مقتضى الحال تقتضي ذلك.

بيْدَ أنّه استوجب علينا أن نبيّنَ سبب هذا التقديم والتأخير، والاختلاف بين المَوْطِنَيْنِ – أعني تقديم اللفظة على أختها تارة وتأخيرها تارة أخرى – بحيث يتّضح السبب لدى المتلقّي أنه لا يصح أو لا يحسن تقديم هذه اللفظة على أختها، وأنّ مكانها هذا هو الأبلغ. أما أن نكتفي بعبارة أنّ هذه اللفظة قُدِّمَتْ للعناية والاهتمام بها فهذا وجه من وجوه الإبهام. والاكتفاءُ بها يضيّع معرفة التمايز بين الأساليب. فلا تعرف الأسلوب العالي الرفيع من الأسلوب المهلهل السخيف، إذْ كل واحد له حق في أنْ يقول : إن عنايتي بهذه اللفظة هنا أكبر، دون النظر بما يستحقه المقام وما يقتضيه السياق.

ومادام القول بالعناية وحدها لا يكفي فقد ذكر العلماء من الأغراض ما يُعَدُّ وجوهًا لهذه العناية. وهي كثيرة بحسب التفسير والتعليل الناتج من ظاهرة التقديم والتأخير في ذاك السياق. فلكلِّ سياقٍ خواصّه، ولكلِّ تقديمٍ أسراره. وقد ذكرت في دراستي هذه بعض الدواعي البلاغية، وقمت باستخراجها من خلال تحليلاتي لبعض آيات سورة الكهف، إلاّ أنّ هناك أغراضًا بلاغية أخرى لم أذكرها من قبل، لكنني أودُّ

---

٧٤ – السابق، ص٨٣.

أنْ أضيفها في هذه السطور الآتية لفائدة القارئ. فأبدأ بالأغراض التي ذكرناها من قبل، وهي :

١ – التخصيص، وهو تقديم المسند إليه ليفيد تخصيصه بالخبر، نحو قوله تعالى ﴿ نحن نقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بالحَقِّ ﴾[٧٥]. فتقديم المسند إليه (نحن) على المسند (الفعل نقصُّ) كان تخصيصًا بأنّ هذه القصة من عندنا، لا من عند غيرنا.

٢ – كَوْنُ المتقدّم محط الانكار والتعجّب. نحو قوله تعالى ﴿.. قال أخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَها، لقَدْ جِئتَ شيئاً إمرا﴾[٧٦] فقد قُدّمَ خبر المبتدأ في قوله تعالى (أخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَها) وفي ذلك ضرب من الانكار على فعل الفاعل، وليس على الفاعل نفسه. ولَو قال : أأنت خرقتها. لكان التعجب والانكار على الفاعل.

٣ – النص على عموم السلب. نحو قوله تعالى ﴿ فَلا تُمارِ فيهِمْ إلاّ مِرَاءً ظاهِرًا، ولا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أحَدًا ﴾[٧٧]. فالنهي هنا شمل الجميع، أمّا لو قال : ولا تستفتِ فيهم أحداً منهم. لما شمل النهي على الجميع دون استثناء، بل يفهم أنّ هناك أفرادًا معيّنة هم المعنيّين من هذا النّهي – والله أعلم – .

٤ – تقرير الحكم وتقويته. نحو قوله تعالى ﴿ نحن نقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بالحَقِّ ﴾[٧٨]. فهو لا يعني أنّ غيره لا يقُصُّ نبأ الفتية، ولكنّه سبحانه وتعالى أراد أنّ حقيقة قصّتهم وصحة نبأهم ستجدها يا محمد عندنا، فنحن الذين نقص نبأهم بالحق. فأدّى تقديم المسند إليه إلى تقرير الحكم وتقويته.

---

٧٥ – سورة الكهف، الآية ١٣.

٧٦ – سورة الكهف، الآية ٧١.

٧٧ – سورة الكهف، الآية ٢٢.

٧٨ – سورة الكهف، الآية ١٣.

وهناك أغراض أخرى غير التي ذكرناها آنفًا، وهي :

١ – التنبيه على أنّ المتقدِّم خبر لا نعت، وذلك خاص بتقديم الخبر المسند على المبتدأ المسند إليه، نحو قوله تعالى (ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين). فالشاهد هنا في قوله (ولكم مستقرٌ)، فلو قال: ومستقرٌ لكم، لتوهّم أنّ (لكم) نعت وأنّ خبر المبتدأ سيُذْكَرُ فيما بعد، وذلك لأنّ الحاجة إلى النعت أشد من حاجتها إلى الخبر، فتعين تقديم المسند للتنبيه أنّه خبر لا نعت [٧٩].

٢ – تعجيل المسرة أو المساءة للتفاؤل أو التطير، فالتعجيل بالمسرة نحو: الجائزة الأولى في المسابقة كانت من نصيبك. ونحو : الافراج عنه تم اليوم. أمّا التعجيل بالمساءة نحو: الخسائر في جيشه كبيرة. الرسوب كان من نصيبه لعدم اهتمامه بالدراسة [٨٠].

هذه بعض الأغراض البلاغية في التقديم والتأخير. وعلى كلٍ، فإنّ القضية التي تم نقاشها في هذا المقال لَمْ ولن تقف إلى هذا الحد. فهي قضية معقّدة وتحتاج إلى دراسات وبحوث مستديمة. وعلماء البلاغة مازالوا يدرسونها، خاصة وأنّ سموها يظهر في آيات الذكر الحكيم.

---

٧٩ – انظر علم المعاني البيان البديع، لعبد العزيز عتيق، ص١٣٧، بتصرُّف.

٨٠ – المرجع السابق، ص١٣٤.

الخاتمة

وبعد، فقد خُضْنا رحلة علمية في الكشف عن أسرار التقديم والتأخير. ووجدنا أنّ هذه القضية بمثابة بحر واسع تكْمُنُ أسرار البيان فيه، وتستفيض الكنوز منه. ذلك لأنّ هذه الظاهرة تحمل في طيّاتها معاني ثانوية لا يترقّبُها سوى ذووا الألباب وأساطين القول والخطاب. ونحن في هذا المقام، لا ندّعي بأنّ ما قدّمْناه من دراسة في هذه الصفحات كافٍ لكل من أراد دراسة التقديم والتأخير، فما عملنا هذا سوى قطرة من هذا البحر، خاصة حين ترتبط هذه الدراسة بالقرآن الكريم. فنحن نرى أنفسنا قد اجتهدنا فوفّيْنا، وأخذنا فأعْطيْنا، لكننا نعود ونقول أنّ ما قدّمناه قليل، والمشوار طويل. فهذا علم لا ينقضي أثره، ولا ينتهي عمره.

على كلٍ، فإن دراستنا هذه كانت تبحث عن هذه الظاهرة البلاغية، إلاّ أنّنا ضيّقنا المناقشة وجعلناها على طاولة الإمام عبد القاهر الذي يُعْتَبَرُ إمام البلاغة والبيان، ورائد السبق في هذا المضمار. ثم اخترنا سورة الكهف لتكون محطة تطبيقاتنا وكشفنا لأسرار بلاغة التقديم والتأخير في هذه السورة.

وقد بيّنا أنّ التقديم ينقسم إلى قسمين: تقديم على نيّة التأخير، وتقديم لاعلى نيّة التأخير.

والتقديم على نية التأخير يكمن غرضه البلاغي في معظمه تجاه العناية والاهتمام للفظة المُقَدّمة، سواء من فهمنا للسياق نفسه، أو من الحدث بأكمله كما في قوله تعالى ﴿ أبْصِرْ بهِ وأسْمِعْ، ما لَهَمْ مِنْ دونِهِ مِنْ ولي ولا يُشْرِكُ في حُكْمِهِ أحدا ﴾[٨١] والتي فسرناها وأوضحنا غرض تقديم السمع على البصر فيها.

---

٨١ - سورة الكهف، الآية ٢٦.

أما التقديم لا على نية التأخير فيكمن في طيّاته الكثير من أغراض البلاغة، والتي لا يتدبّرها سوى ذو الذوق الحصيف الذي يفهم معنى البلاغة والفصاحة والبيان. فرأينا واستمتعنا من بلاغة قوله تعالى ﴿ فقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ، قالَ الذِينَ غلبوا على أَمْرِهِمْ لَنَتّخِذَنّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾[٨٢]، وفي قوله تعالى ﴿ فَلا تُمارِ فيهِمْ إلاّ مِرَاءً ظاهِرًا، ولا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[٨٣]، وفي بلاغة قوله تعالى ﴿ ويَوْمَ نُسَيّرُ الجِبَالَ وتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[٨٤]. فكان للتقديم والتأخير فيها أسرار بلاغية، ونكتة بيانية، أدركناها بعد أنْ تذوّقنا معنى الآية بأكملها.

إنّ قضية التقديم والتأخير هي قضية بلاغية بحتة ترتبط ارتباطاً مباشراً بالمعاني. فلا يوجد تقديم لفائدة وتقديم دون فائدة، بل كلّها لفائدة وغرض معيّن. فاستخرجنا ثم استنتجنا بعض الدواعي البلاغية من خلال تحليلاتنا لبعض آيات سورة الكهف المباركة. فكان لنا في هذا المضمار شاهدٌ في قوله تعالى ﴿ أأنت فَعَلْتَ هذا بآلِهَتِنا ياإبْراهيم ﴾[٨٥]، وفي قوله تعالى ﴿ .. قال أخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها، لقَدْ جِئتَ شيئاً إمرا ﴾[٨٦]، وفي قوله تعالى : ﴿ نحن نقُصّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بالحَقّ ﴾[٨٧]، ووجدنا ما دأبنا إليه.

أمّا عن المعاني الكامنة من وراء التقديم والتأخير، فكان لنا في هذا المقام شاهد عظيم في قوله تعالى ﴿ إذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[٨٨]، وفي قوله تعالى ﴿ إذَا السّماءُ انْشَقّتْ ﴾[٨٩]، فاستخرجنا المعاني الكامنة من تقديم (زلزلت) على (الأرض) وتقديم

---

٨٢ – سورة الكهف، الآية ٢١.
٨٣ – سورة الكهف، الآية ٢٢.
٨٤ – سورة الكهف، الآية ٤٧.
٨٥ – سورة الأنبياء، الآية ٦٢.
٨٦ – سورة الكهف، الآية ٧١.
٨٧ – سورة الكهف، الآية ١٣.
٨٨ – سورة الزلزلة، الآية ١.
٨٩ – سورة الإنشقاق، الآية ١.

(السماء) على (انشقت). وكان نتاجنا من هذا أنْ انتقلنا إلى سورة الكهف، ووجدنا فيها الابداع في تقديم (في هذا القرآن) على (للناس)، وتأخيرها مرة أخرى في سورة الإسراء.

وقبل أن أختم كلامي هذا، أودُّ أن أُحفِّز طلبة اللغة العربية – خاصة الماليزيين – بتذوُّق هذه اللغة المباركة بصورة وجدانية حقيقية يُعنى – هذا التذوُّق – إلى معرفة اللغة العربية من حيث تراكيب جُمَلِها التي تقود إلى معرفة أسرار الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

كما أوصي دارسي علم النحو والصرف أن يدرسوا هذا العلم الجليل دراسة بلاغية وليست دراسة لتلك القواعد الجامدة من إعراب وحركات وسكنات فقط. فالنحو البلاغي هو الذي يضفي على النفس ذلك الذوق الأدبي – المفقود لدى الكثير من طلابنا – وبالتالي يصبح علم النحو والصرف مفتاحاً لمعرفة معاني الكلام، وخفايا دلالاته، وليس علماً يُريكَ أين تضع الفتحة والضمة والكسرة فقط.

كما أقترح على طلبة اللغة العربية وأشجعهم في دمج المنهج الاستقرائي بالمنهج التحليلي التطبيقي في دراسة اللغة العربية، ومحاولة ربط هذه الدراسات بالقرآن الكريم بقدر الإمكان، والعناية به كمصدر رئيس لتلك التحليلات والتطبيقات.

أسأل الله العلي القدير أنْ أكون قد وفّقْت، وبإخلاص النية أصَبْت، مذهباً للإجادة، وهدفاً للإفادة. وأن يزيدني علماً على علم، خادماً له ولطلابه.. إنّه السميع المجيب.

المصادر والمراجع

- إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، (دار الدعوة، مجمع اللغة العربية : مصر)، د.ط، د.ت.
- ابن جني، أبو عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، (دار الكتب : القاهرة)، ١٩٥٦م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب ومجمد الصادق العبيدي تصحيح أمين محمد عبد الوهاب ومجمد الصادق العبيدي، (دار إحياء التراث العربي : بيروت)، ط ١٤١٩هـ .
- بركة، عبد الغني محمد سعيد، الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره، (مكتبة وهبة: القاهرة)، ١٩٨٩م، ط١.
- البغدادي، أبو منصور عبد القادر بن طاهر، الفرق بين الفرق، تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد، (دار المعرفة : القاهرة).
- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق : محمود محمد شاكر، (مكتبة الخانجي: القاهرة)، ١٩٩١م.
- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد التنجي، (دار الكتاب العربي : بيروت)، ط٣، ١٩٩٩م.
- الداية، فايز، علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، (دار الفكر : دمشق)، ١٩٨٥م.
- الرافعي، مصطفى صادق، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، (مكتبة مصر : مصر).
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود، الكشاف، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي : مصر)، الجزء٢، الطبعة الأخيرة، ١٩٧٢م.

- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تعليق إميل بديع يعقوب، (دار الكتب العلمية : بيروت)، ١٩٩٠م.
- السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، ما يحتمل الشعر من الضرورة، تعليق د. عوض حمد القوزي، ١٩٩٣م، د.ط.
- الشجيري، هادي أحمد فرحان، الدراسات اللغوية والنحوية في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وأثرها في استنباط الأحكام الشرعية، (دار البشائر الإسلامية: دمشق)، ٢٠٠١م، ط١.
- الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير : الجامع بين فن الرواية والدراية من علم التفسير، (مكتبة مصطفى البابي الحلبي : مصر)، ١٩٢٩م.
- ضيف، شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، (دار المعارف : مصر) ط عام ١٩٦٥م.
- عامر، فتحي أحمد، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، (طبعة المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية : القاهرة، د.ط)، ط عام ١٩٧٥م.
- عتيق، عبد العزيز، في البلاغة العربية علم المعاني والبيان والبديع، (دار النهضة العربية : بيروت).
- العلوي، يحيى بن حمزة العلوي اليمني، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تدقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، (دار الكتب العلمية : بيروت).
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، (دار كاتب عربي : القاهرة)، ط٣ ، ١٩٦٦-١٩٦٧م.
- مسلم، مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، (دهر القاع : دمشق)، ط٥، ٢٠٠٧م.